وسطية القرآن في أصول الإيمان

إعداد
د. محمد بن عبد الله البريدي
الأستاذ المشارك بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة
الملك خالد-أبها

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم إلى يوم الدين...

أما بعد:

فإن الإيمان بالله سبحانه وتعالى أساس الدين وأصله الذي يقوم عليه، ومن المعلوم بالأدلة الشرعية من الكتاب والسُّنة أن الأعمال والأقوال مهما كانت لا تصح ولا تقبل من صاحبها إلا إذا صدرت عن صاحب إيمان صحيح، أما إذا كان الإيمان غير صحيح فإنه يبطل ما تفرع عنه من قول أو عمل كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

وملخصه هو الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالى، فهذه الأمور الستة هي أصول الإيمان التي أنزلها الله على رسوله ﷺ وبعث بها رسله قبله(١)، ويتفرع عنها كل ما يجب الإيمان به من أمور الغيب مما أخبر الله به ورسوله ﷺ من حقوق الله سبحانه وأمور المعاد وما يتعلق به من أمور القيامة والبعث والجزاء والجنة والنار.

وأدلة أصول الدين في الكتاب والسُّنة كثيرة جداً منها قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقوله سبحانه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠]. بل كل سورة في القرآن الكريم متضمنة للتوحيد وشاهدة به وداعيه إليه(٢).

ومن الأحاديث الكثيرة الدالة على هذه الأصول الحديث المشهور الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام سأل النبيّ ﷺ عن الإيمان فقال له: **«الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»**(٣).

---

(١) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/٢١).

(٢) ينظر لتوضيح هذا الجانب في: مدارج السالكين لابن القيم (٣/٤٤٥ ـ ٤٤٩).

(٣) رواه مسلم رقم (١/٨) والإمام أحمد (٢٧/٨)، وأبو داود (٤٦٩٥) والترمذي (٢٦١٠)، والنسائي (٩٧/٨) وغيرهم. واستوفاه شرحاً وتوضيحاً واستخراجاً للفوائد ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (١/٩٣ ـ ١٤٣).

وهذه الأصول وسط بين عقائد أهل الأديان يعلم بذلك كل مؤمن مسلم ودون تفكر عميق بل وسطية الإسلام ظاهرة بين المبادىء والأفكار والمذاهب سواء في باب العقائد التي هي أصول الإيمان أو الأخلاق والعبادات والتشريعات والأحكام. فهي ولله الحمد سمة ظاهرة بين أهل الغلو والجفاء وبين أهل الإفراط والتفريط وأهلها هم أهل العدل والوسطية بين أهل الأديان والملل، وهذا البحث يتناول هذه السمة في باب الإيمان من خلال المباحث الآتية:

١) وسطية أهل الاسلام بين أهل الأديان.
٢) وسطية القرآن في باب توحيد الأسماء والصفات.
٣) وسطية القرآن في باب الإيمان بالملائكة.
٤) وسطية القرآن في باب الإيمان بالكتب السماوية.
٥) وسطية القرآن في باب الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم السلام.
٦) وسطية القرآن في باب الإيمان باليوم الآخر.
٧) وسطية القرآن في باب القضاء والقدر.

* * *

وسطية أهل الإسلام بين أهل الأديان

إن ما يدعو إليه الإسلام من قضايا الإيمان حق ووسط بين الأديان والمذاهب المختلفة يتضح ذلك من خلال الأمور الآتية:

١) **أنه دين الفطرة** التي فطر الله النفوس عليها فليست مبادئه غريبة عنها ولا مناقضة لها بل هي موافقة لها منطبقة عليها انطباق المفتاح المحدد على قفله المحكم. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

وقد أجمع عامة المفسرين أن المراد دين الله تعالى (الإسلام) كما نقلوا ذلك عن عكرمة ومجاهد والحسن وغيرهم(١).

وجاء في الحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة** (أي: على الإسلام) **وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»(٢).

فدل على أن المراد بالفطرة دين الإسلام، فلا يحتاج إلى تأثير من الأبوين، أما الأديان الأخرى من يهودية ونصرانية ومجوسية فهي من تلقين الآباء(٣). فكل ما يدعو إليه سهل وواضح لدى أهل العقول ليس فيه غموض ولا أسرار تحجب عن العامة بل كل ما فيه معروف للجميع.

---

(١) ينظر بسط الموضوع عند شيخ الإسلام ابن تيمية مجموعة الرسائل الكبرى (٣١٧/٢)، ودرء التعارض (٣٥٩/٨ ـ ٣٩٥)، وينظر شفاء العليل ص ٢٨٣ لابن القيم.

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ (٢٤١/١)، والإمام البخاري (١٣٥٨)، وفي مواضع أخرى، والإمام مسلم (٣٦٥٨) وغيرهم من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو في جامع السيوطي (٩٤/٤). وانظر: شرح العقيدة الطحاوية (٣٣/١، ٣٤).

(٣) العقيدة الإسلامية وعلم الكلام ص ٢٦.

٢) **أنه عقيدة ثابتة**: والمقصود بذلك أن حقائق العقيدة الإسلامية قد بلغت من الاتفاق واكتمال البيان البنيان ما لا يؤثر فيها تغير الأحوال أو اختلاف الأنظار⁽١⁾، فهي عقيدة قد أحكم بناؤها من لدن حكيم خبير، فهي عقيدة ثابتة لا تقبل الزيادة أو النقصان ولا التحريف أو التبديل فليس لحاكم من الحكام أو مجمع من المجامع العلمية أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية أن يضيف إليها أو يحوّر فيها وكل إضافة أو نقص مردود على صاحبه كما قال عليه الصلاة والسلام: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رد**»⁽٢⁾.

وما طرأ عند بعض المسلمين من اختلاف في أمور العقائد فهو بسبب الانحراف عن المنهج الحق ومنهج سلف الأمة.

٣) **أنه دين الوسطية**: وهي العدل والفضل والخيرية والنِّصف البينية والتوسط بين طرفين، وقد استقر في لغة العرب تلك الإضافة إلى الجودة والرفعة والمكانة العالية⁽٣⁾.

فالأمة الإسلامية هي الأمة الوسط كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. فوسطية هذه الأمة مستلزمة للعدالة والخيرية، ولذا فإن مضمونها يستلزم شهادتهم على الناس يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. والوسطية ليس فيها إفراط ولا تفريط، بل هي وسط بين الذين ينكرون كل ما وراء الطبيعة مما لم تصل إليه حواسهم وبين الذين يثبتون للعالم أكثر من إله وباختصار فمعنى وسطية

---

(١) كما يزعم كثير من الباحثين الغربيين أن الإنسان لم يعرف الله حق المعرفة ولكن ترقت عبر القرون والأزمان إلى الكمال وهذا جهل منهم بتاريخ الرسل عليهم السلام وما جاؤوا به. ينظر كتاب: العقيدة في الله ص ٢٤٣. وما نقله عن العقاد في كتاب الله. وذكر عقيدة البدائيين الطوطم. . .إلخ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث عائشة رقم (٢٦٩٧)، وأخرجه مسلم رقم (١٧١٨)، وانظر: جامع السيوطي (٢/ ١٦٠).

(٣) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٦/١٠٨)، ولسان العرب (٧/٤٢٧، ٤٣٠)، والصحاح (٣/١١٦٧).

العقيدة الإسلامية أنها حق بين باطلين باطل الجفاء وباطل الغلو سواء في تصورها عن الله وأسمائه وصفاته أو النظر إلى العقل أو المحسوسات أو المغيبات وفي كل باب من أبوابها(١). فكل ما جاء به الرسول ﷺ وصح عنه فهو عدل وحق ووسط لا يصح أن يزاد عليه أو يترك منه شيء، وإلا خرجنا عن مفهوم الوسطية الشرعي.

٤) **أنه دين الشمولية**: والمقصود أن عقيدة المسلمين عقيدة أنزلت للبقاء والخلافة في الأرض حتى يأتي أمر الله. ولذا، لا بد أن تشمل جميع المعطيات الحيوية للبقاء، فهي العقيدة التي كتب الله لها البقاء إلى قيام الساعة. قال عليه الصلاة والسلام: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم**»(٢).

فهي موسوعية في المعنى والتطبيق فمن جهة المعنى تشمل التصور الكامل للقضايا الكبرى التي ضل في تصورها الكثير من الناس.

فتعطي التصور حول الإله والحياة والكون والإنسان حتى أنه لا يزيغ عن ذلك إلا هالك.

وفي التطبيق نرى أن الدين الإسلامي يعطي التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين بحيث لا ينفرد أحدهما في التأثير ويطرد الآخر، فهو وسط بين المادية المقيتة والروحية الحالمة، ووسط بين الواقعية المرة والمثالية الخيالية، ووسط بين الفردية الطاغية والجماعية الساحقة وبين الثبات الرتيب والتغير المضطرب، بين الحاجات الملحة والقيم البعيدة وبين العقلانية الباردة

---

(١) ينظر في ذلك كلام الإمام الطبري في تفسيره (٦/٢)، وتفسير المنار (٤/٢)، والقواعد الحسان للشيخ السعدي ص٩٠.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٢٠)، والترمذي (٢٢٣٠) من حديث ثوبان، وأخرجه أحمد (٢٤٤/٤) والبخاري (٣٦٤٠) من حديث المغيرة بن شعبة وغيرهم.

والعاطفية المتقدة، بين نوازع الجسد وشهواته ومتطلبات الروح(١).

إنه المنهج الوسط استقامة على المنهج بعيداً عن الميل والانحراف، إنه يعني الخيرية والفضل والتميز والعدل والبينية في الأمور كلها، إنه الدين القيم الذي اختاره الله ليكون هداية للعالمين.

فللّه الحمد والمنة على ما شرفنا به واختارنا لنكون من خير أمة أخرجت للناس وحق لكل مؤمن أن يفخر بذلك ويفرح بفضل الله.

* * *

---

(١) ينظر: المقدمات في أصول الدين للبريكان ص ٣٤.

وسطية القرآن في باب توحيد الأسماء والصفات

إن من آتاه سبحانه فقهاً في كتاب الله تبارك وتعالى وما جاء فيه عن دعوة الرسل الكرام، وما أنزل عليهم من الكتب يجد أن الدعوة إلى توحيد الله وعبادته دون سواه، أساس رسالاتهم وعمودها الفقري، وهي القاسم المشترك بينها، وإن اختلفت بعد ذلك الشرائع والمناهج فما من نبي أرسل ولا كتاب أنزل إلا وكان أول ما يدعو إليه هو توحيد الله تبارك وتعالى.

يقول الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقوله: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦].

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام دينهم واحد، وهو الإسلام وبمعناه العام وشرائعهم مختلفة كما قال المصطفى ﷺ: **«أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد»**⁽¹⁾.

قال الحافظ ابن حجر (ت٨٥٢هـ): (ومعنى الحديث: أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع، وقيل: المراد أن أزمنتهم

---

(١) أخرجه البخاري: ٤٧٨/٦ رقم (٣٤٤٣) وهذا لفظ الإمام مسلم رقم (١٤٥/٢٣٦٥)، وهو في مسند الإمام أحمد (٤٠٦/٢، ٤٣٧)، وغيرهم بألفاظ متقاربة.

مختلفة)(١).

وكل الأنبياء أخبروا بأنهم مسلمون ودعوا قومهم للإسلام؛ لأنه الدين الحق الذي لا يقبل الله غيره(٢). كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

ومن أعظم الأمم اختلافاً وتحريفاً في هذا الباب اليهود والنصارى، فاليهود غلب عليهم التقصير والتفريط والجفاء، وإن كان لديهم غلو وإفراط، والنصارى غلب عليهم الغلو والإفراط وإن كان وقع منهم تفريط وتقصير في جوانب. والمسلمون اتبعوا الرسل، فهدوا لأقوم السبل، فكان قولهم هدى بين ضلالتين، وحقاً بين باطلين، فهو كلبن سائغ يخرج من بين فرث ودم(٣)، وإليك بيان ذلك.

أولاً: مسلك اليهود:

من المعلوم عند الباحثين أن اليهود أمة غلب عليها طابع الاختلاف والتفرق، والتفريط والتقصير في هذا الباب، بل هو الغالب عليهم في أكثر الأبواب.

ولعل من أبرز مظاهر تفريطهم وتقصيرهم في الإيمان أمرين:

الأول: اتخاذهم الأنداد لله عز وجل، وعبادة الأصنام.

والثاني: تشبيه الخالق بالمخلوق، ووصف الله عز وجل بالنقائص

---

(١) فتح الباري (٤٨٩/٦).

(٢) ينظر: الرسالة التدمرية ص ١٦٧، ١٧٣.

(٣) ينظر: وسطية أهل السُّنة بين الفرق، محمد باكريم: ٢٤٢ ـ ٢٤٣ بتصرف.

والعيوب التي لا تليق إلا بالمخلوق، إلى حد الإسراف.

فأما الأمر الأول: وهو اتخاذهم الأنداد وعبادة الأصنام، فإنهم، لما أنقذهم الله من عدوهم، مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم، مالت نفوسهم إلى الوثنية وطالبوا موسى عليه السلام أن يجعل لهم مثلها: قال الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨]. فبين لهم موسى عليه السلام ضلال أولئك وبطلان عملهم، وأن الإله الحق هو الله الذي فضلهم على العالمين فقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٩، ١٤٠].

١ ـ اتخاذهم العجل في زمن موسى:

فما أن تركهم عليه السلام وذهب يناجي ربه، حتى اتخذوا العجل من بعده إلـهاً من دون الله قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨] ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾ [البقرة: ٥١]، ثم بيّن تعالى من تولى كبر إضلالهم وصناعة العجل لهم، فقال: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾ [طه: ٨٥ ـ ٨٨].

فبين تعالى أن الذي عمل لهم العجل هو السامري، ولكن إن أسفار العهد القديم تنسب هذا العمل الشنيع إلى هارون عليه السلام كما جاء في (سفر الخروج)(١). وقد تكرر منهم اتخاذ الأصنام وعبادتها بعد موسى عليه السلام.

---

(١) انظر: العهد القديم، سفر الخروج، إصحاح ٣٢ فقرة: ١ ـ ٦.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : (وأهل الكتاب معترفون بأن اليهود عبدوا الأصنام مرات . . .)(١).

وفي كتب اليهود ما يدل على عبادتهم الأوثان والأصنام، من ذلك:

١ ـ ما جاء في (سفر الملوك الثاني) عن عودتهم لعبادة العجل في عهد رحبعام(٢)، يقول السفر: (. . . وعمل عجلي ذهب وقال لهم: كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم هو ذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر ووضع واحداً في بيت أبل، وجعل الآخر في دان)(٣).

٢ ـ عبادتهم الأفعى وبعض التماثيل:

جاء في (سفر الملوك الثاني) عن الملك حزقيال أنه: (أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السواري وسحق حية النحاس التي عملها موسى؛ لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها . . .)(٤).

على أن موسى عليه السلام لم يعمل تمثالاً نحاسياً لحية، وإنما كانت عصاه تنقلب إلى حية تسعى معجزة له ثم تعود سيرتها الأولى بعد ذلك عصاً يتوكأ عليها ويهُشُّ بها على غنمه، لكن يهود علموا ذلك ونسبوه إلى موسى عليه السلام لتروج عند الناس ويعظموها ويعبدوها كما نسبوا السحر إلى سليمان عليه السلام وهو منه بريء وما كفر عليه السلام ولكن الشياطين كفروا.

وأما الأمر الثاني: وهو التشبيه ووصف الخالق بصفات المخلوقين:

وهذا أمر مشهور عنهم، وهو من طباعهم الملازمة لهم(٥)، فإن القوم أسرفوا في تشبيه الله عز وجل بالمخلوق ووصفوه جل وعلا بالنقائص التي

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: (٣/٢٤٧).

(٢) هو رحبعام بن سليمان عليه السلام ملك بعد أبيه.

(٣) سفر الملوك الأول، إصحاح ١٢ فقرة: ٢٨ ـ ٢٩.

(٤) إصحاح ١٨ فقرة: ٤.

(٥) ينظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/١٠٦).

تختص بالمخلوق. وحرفوا كلام الله الذي أنزله على رسله.

وقد سجل عليهم القرآن الكريم كثيراً من ذلك، وكتابهم الذي بين أيديهم ينضح بالكثير من التنقص لله عز وجل، وإليك بعض النماذج من أقوالهم التي شبهوا فيها الخالق سبحانه بخلقه.

١ ـ فمن ذلك: وصف الله تعالى بالفقر.

وهي صفة لا تليق بخالق البشر، ولكن اليهود قوم لا يعقلون ولا حياء عندهم، يقول عز وجل في ذلك: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ١٨١].

٢ ـ ومن ذلك: وصفهم له تعالى بأن يده مغلولة.

قال عز وجل ذاكراً قولهم هذا: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤].

٣ ـ وصفوه بأنه: (يحزن، ويندم على أفعاله) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

يصفه (سفر التكوين) بذلك فيقول: (ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم فحزن الرب أنه عمل الإنسان الذي خلقه، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأني حزنت أني علمتهم)(١).

٤ ـ ووصفوه: بالتعب والاستراحة تعالى عن ذلك.

وفي سفر (التكوين): (فأكملت السماوات والأرض وكل جندها وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل واستراح في اليوم السابع من

---

(١) إصحاح ٦ فقرة: ٥ ـ ٨، وسفر الخروج، إصحاح ٣٢ فقرة: ١٤.

جميع عمله الذي عمل)(١).

٥ ـ وقالوا: بأنه إنسان وصارع يعقوب عليه السلام إلى الفجر ونسبوه إلى العجز والجهل.

ففي (سفر التكوين): (فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه، وقال: أطلقني لأنه قد طلع الفجر، فقال: لا أطلقك إن لم تباركني، فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب، فقال: لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل؛ والناس وقدرت(٢) . . .

٦ ـ وصفوه بما يفيد أنه: (لا يعلم الغيب ويحتاج علامات يميز بها بني إسرائيل من غيرهم، فوضع الدم علامة على بيوت بني إسرائيل ليميزها عن بيوت المصريين حتى لا يهلكهم). ففي (سفر الخروج): (أن الرب كلم موسى عليه السلام وقال له فيما قال: فإني أجتاز في أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر في أرض مصر من الناس والبهائم، وأصنع أحكاماً بكل آلهة المصريين أنا الرب، ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي أنتم فيها فأرى الدم وأعبر عنكم فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر)(٣).

٧ ـ أنهم: جعلوا له أبناء كما أن للمخلوق أبناء.

جاء في (سفر التكوين): (وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا)(٤). وحكى الله عز وجل عنهم أنهم جعلوا له ابناً

---

(١) إصحاح ٢ فقرة: ١ ـ ٢.

(٢) إصحاح ٣٢ ـ فقرة: ٢٤ ـ ٣٠، وقريب منه سفر الخروج، إصحاح ٣١ فقرة: ١٧.

(٣) سفر الخروج، إصحاح ١٢ فقرة: ١٢، ١٣، وقريب منه في سفر المحكومين إصحاح ٣ فقرة: ٨.

(٤) إصحاح ٦ فقرة: ١ ـ ٢.

فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

وهذا كله مما لا شك فيه أنه من افتراءات اليهود على الله تعالى وتلاعبهم بكلام الله وما أنزله في كتبه وفق أهوائهم فعليهم من الله ما يستحقون(١).

ثانياً: مسلك النصارى:

لقد ضل النصارى في باب الإيمان ضلالاً بعيداً، حيث لم تضل أمة في دينها وربها وإلهها كما ضل النصارى. فالضلالة صفتهم المميزة لهم، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله: **«اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال»**(٢). قال ذلك في تفسير قول الله عز وجل: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]. وذلك أن اليهود عرفوا الحق ولم يتبعوه والنصارى عبدوا الله بغير علم ولهذا كان يقال: تعوذوا بالله من فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون(٣). ولعل من أعظم ضلالهم في باب توحيد الله وصفاته أنهم:

١ ـ شبهوا المخلوق بالخالق:

حيث أضفوا على البشر من الصفات والخصائص ما لا يليق إلا بالله عز وجل ولا يصلح إلا له، فقالوا: (إنه يخلق، ويرزق، ويغفر، ويرحم، ويتوب على الخالق ويثيب ويعاقب)(٤). وهذه الصفات من خصائص الربوبية، وصفات الألوهية التي لا تكون إلا لله سبحانه.

---

(١) للتوسع: ينظر كتاب تحريف التوراة وسياسة إسرائيل التوسعية، محمد البار، وكتاب دراسات في الكتاب المقدس، محمود حماية.

(٢) الترمذي: كتاب التفسير، باب من سورة الفاتحة (٥/٢٠٤). ورواه الإمام أحمد في مسنده (٤/٣٧٨، ٣٧٩)، ط: دار صادر في قصة إسلام عدي بن حاتم.

(٣) ينظر: الرسالة التدمرية ص ٢٤٠.

(٤) الوصية الكبرى، لابن تيمية ص ٤.

وقد جعلوا المسيح عليه السلام هو الله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]. وتارة جعلوه ابناً لله سبحانه وتعالى عما يقول المبطلون، وعن قولهم هذا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠].

وقالوا تارة أخرى إنه شريك لله عز وجل من ثلاثة أقانيم يتكون منها الإله كما ذكر الله قولهم وكفَّرهم به فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٣]، فألهوا المسيح عليه السلام وجعلوه شريكاً لله، وعبدوه من دونه، بل وصفوه بأخص صفات الألوهية والربوبية من الخلق والرزق والإحياء، والإماتة؛ وبذلك فاقوا عباد الأصنام والأوثان الذين قالوا في معبوداتهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، لم يضيفوا إليها شيئاً من خصائص الربوبية كالخلق والرزق ونحو ذلك، بل أقروا بكل ذلك لله وحده كما قال عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١].

وحكى الإمام ابن القيم عنهم أنهم قالوا: (وليس المسيح عند طوائفنا الثلاث هكذا بنبي ولا عبد صالح، بل هو رب الأنبياء وخالقهم وباعثهم ومرسلهم وناصرهم، ومؤيدهم ورب الملائكة)(١).

وفي قرارهم الذي قرروه في (مجمع نيقية)(٢) الذي عقدوه سنة

---

(١) هداية الحيارى ص ٢٦٩.

(٢) سمي بذلك؛ نسبة إلى مدينة نيقية من أعمال إسطنبول وتسمى الآن: (أرنبق) التي اجتمع فيها عدد من علماء النصارى، وكان من قراراتهم القول بإلهية المسيح. ينظر: المنجد في الأعلام، ص ٧٢١.

(٣٢٥م) وسموه بـ (الأمانة) ونصوا فيه على ألوهية المسيح عليه السلام، صرحوا بأنه هو الذي سينزل للقضاء بين الناس يوم القيامة ومحاسبتهم ومجازاتهم(١).

قال أحد قساوستهم: (أما بعد حمد الله الذي هدانا لدينه، وأيدنا بيمينه، وخصنا بابنه ومحبوبه، ومد علينا رحمته بصلبه المسيح إلهنا، الذي خلق السماوات والأرض وما بينهن، والذي أمدنا بدمه المقدس ومن عذاب جهنم وقانا...)(٢).

فالنصارى يصفون المسيح عليه السلام بصفات الربوبية المختصة برب العالمين عز وجل، وهذا أمر انفردوا به من بين العالمين. ولم يقتصر الأمر على المسيح عليه السلام، بل جعلوا لغيره من الخلق بعض صفات الله تبارك وتعالى، فجعلوا مريم عليها السلام إلهة؛ لأنها أم الله بزعمهم، ووصفوها بالجلوس على العرش مع الله عز وجل، وسألوها ما لا يسأل إلا من الله عز وجل. قال الإمام ابن القيم (ت٧٥١): (وأما قولهم في مريم: فإنهم يقولون إنها أم المسيح ابن الله ووالدته في الحقيقة... وأنها على العرش جالسة عن يسار الرب تبارك وتعالى والد ابنها، وابنها عن يمينه، قال: والنصارى يدعونها، ويسألونها سعة الرزق وصحة البدن وطول العمر ومغفرة الذنوب)(٣).

وهذه الأمور لا يملكها إلا الله عز وجل ولا تُسأل إلا منه. قال تعالى مخاطباً عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦].

---

(١) انظر: الشهرستاني، الملل والنحل: (٢٨/٢)، وتاريخ الفكر المسيحي (٦٢١/٤، ٦٢٢)، ومحاضرات في النصرانية، لأبي زهرة ص ١٣٤.

(٢) أبو عبيدة الخزرجي، بين المسيحية والإسلام ص ٧٢.

(٣) هداية الحيارى ص ٢٦١.

وخصوا كنائسهم وباباواتهم ومطارنتهم ببعض خصائص الله عز وجل كمغفرة الذنوب ودخول الجنة والحرمان منها ففي المجمع الثاني عشر من مجامعهم المعقود في سنة ١٢١٥م قرروا: (أن الكنيسة الباباوية تملك الغفران وتمنحه لمن تشاء)(١). وبناءً على هذا القرار قامت الكنيسة بإصدار ما يسمى بـ (صكوك الغفران).

قال أحد قسسهم في هذا: (وقد جعل الله في أيدي المطارين ما لم يجعله في يد أحد، وذلك أن كل ما يفعلون في الأرض يفعله الله في السماء، فإذا أذنبنا فهم الذين يقبلون التوبات ويعفون عن السيئات بأيديهم صلاح الأحياء والأموات)(٢). ماذا أبقوا لله عز وجل؟!!

٢ ـ ومن ضلالهم أنهم شتموا الله وكذبوه عز وجل وتنقصوه وذلك من وجوه:

الأول: حيث زعموا أن الله اتخذ ولداً، فقالوا: إن المسيح ابن الله، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. وقد نزه الله عز وجل نفسه عن اتخاذ الصاحبة والولد فقال: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [البقرة: ١١٦].

وقد بيّن سبحانه في الحديث القدسي، أن من نسب إليه اتخاذ الولد فقد شتمه وسبه بقوله ذلك، ففي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبيّ ﷺ قال: «**قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله: لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً**»(٣).

الثاني: زعمهم أن الله ـ سبحانه وتعالى عن قولهم علواً كبيراً ـ (نزل

---

(١) محاضرات في النصرانية، لأبي زهرة ص ١٤٨.

(٢) بين المسيحية والإسلام، لأبي عبيدة الخزرجي ص ٩١.

(٣) البخاري: كتاب التفسير، باب: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ...﴾ (١٦٨/٨) رقم ٤٤٨٢.

من السماء وتجسد من روح القدس وصار إنساناً وحبل به وولد من مريم البتول وقتل وصلب)(١).

قال الإمام ابن القيم (ت٧٥١): (. . . إن هذه الأمة - أي: النصارى: ارتكبت محذورين عظيمين، لا يرضى بهما ذو عقل ولا معرفة.

أحدهما: الغلو في المخلوق، حتى جعلوه شريك الخالق وجزءاً منه، وإلهاً آخر معه، ونفوا أن يكون عبداً له.

والثاني: تنقص الخالق وسبه ورميه بالعظائم، حيث زعموا أنه سبحانه وتعالى عن قولهم علواً كبيراً - نزل من العرش عن كرسي عظمته، ودخل في فرج امرأة وأقام تسعة أشهر يتخبط بين البول والدم والنجو(٢)، وقد علته أطباق المشيمة والرحم والبطن، ثم خرج من حيث دخل، رضيعاً صغيراً يمص الثدي، ولعمر الله إن هذه مسبة لله سبحانه ما سبه بها أحد من البشر قبلهم ولا بعدهم)(٣).

هذه بعض عقائدهم وأكاذيبهم على الله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

ثالثاً: مسلك المسلمين في هذا الباب ووسطيتهم:

أما أهل الإسلام فقولهم في هذا الباب ما هو إلا ما جاء به المرسلون من توحيد الله وإفراده بالعبادة، فآمنوا بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا إله غيره، ولا رب سواه، وهو رب العالمين، وخالق الكون، ومدبره ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ونزهوه سبحانه عن

---

(١) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ٢٨/٢.

(٢) النجو: ما يخرج من البطن من ريح وغائط. انظر: لسان العرب (٣٠٦/١٥).

(٣) ينظر إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢٧٨/٢)، وانظر: الجواب الصحيح: (٥٢/٢). وانظر: وسطية القرآن ص٢٧٤ - ٢٨٠.

الأنداد، واتخاذ الصاحبة والأولاد، تصديقاً لقوله تعالى عن نفسه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال المؤمنون من الجن والإنس: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣)﴾[الجن: ٣]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ (١) ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ (٤)﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

ووصفوه سبحانه بصفاته الكمال والجلال، ونزهوه عن جميع صفات النقص، كما نزهوه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات⁽¹⁾. ولم يصفوه إلا بما وصف به نفسه سبحانه، أو وصفته به رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، من غير تعطيل ولا تمثيل فلم يشبهوه بشيء من خلقه لا في ذاته ولا في صفاته ـ كما فعل اليهود ـ بل قالوا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. ولم يشبهوا شيئاً من خلقه به، لا في ذاته ولا في شيء من صفاته، ولم يجعلوا له نظيراً أو نداً أو مثيلاً أو شريكاً في شيء من خصائص ألوهيته وربوبيته ـ كما صنع النصارى ـ بل نزهوه سبحانه عن الشبيه والنظير والكفء والند والمثيل.

وإذا تأملنا سورة الإخلاص وجدنا أنها اشتملت على صفات الكمال لله سبحانه وتعالى وأنه تعالى المتفرد بها وحده دون من سواه قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ (١) ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ (٤)﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]. ففي هذه السورة وصف الله سبحانه نفسه بأنه أحد صمد، فهذان الوصفان يدلان على اتصاف الله بغاية الكمال المطلق وجاء عن السلف بيان معنى الصمد وكلها معان تدل على الكمال⁽²⁾.

---

(١) ينظر: منهاج السُّنة لابن تيمية (١٦٩/٥).

(٢) ينظر في تفصيل الأقوال في معنى الصمد، بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٤٦٣/٣، ٢٢٤/٤، ٤٨٦/٧ ـ ٥٦٠)، وتفسير سورة الإخلاص لابن تيمية، تحقيق عبدالعلي حامد.

فروى أبو هريرة في معنى الصمد: (أنه المستغني عن كل أحد والمحتاج إليه كل أحد)(١). وهذا يدل على الإثبات والتنـزيه، فالإثبات لوصفه سبحانه بأنه هو الذي يصمد إليه، أي: يرجع إليه في كل أمر، لأنه هو المتصف بجميع صفات الكمال، وهو القادر على كل شيء، والفعال لما يريد، والذي بيده الخلق والأمر والجزاء، وما من قوة لغيره تعالى إلا منه، إذا شاء أبقاها ومتى شاء سلبها، فالمرجع والمرد إليه سبحانه.

وأما التنـزيه فوصفه تعالى بأنه غني عن كل شيء فليس مفتقراً بوجه من الوجوه، لا في وجوده فإنه الأول الذي ليس قبله شيء وهو الذي لم يلد ولم يولد، ولا في بقائه، ولا في أفعاله فلا شريك ولا ظهير ولا معد له ولا ممد له بل غناه منه تعالى.

كما أن وصفه سبحانه بأنه أحد صمد يدل على اتصافه بالكمال المطلق، وكذلك يدلان على معنى آخر وهو نفي الولادة والتولد على الله سبحانه، فإن الصمد جاء في بعض الأقوال بأنه الذي لا جوف له ولا أحشاء، فلا يدخل فيه شيء فلا يأكل ولا يشرب سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]، فإن الأحد هو الذي لا كفؤ له ولا نظير فيمتنع أن تكون له صاحبة.

والتولد إنما يكون من شيئين قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠١]. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]. وفي هذا سلب عن المخلوق مكافأته ومماثلته للخالق ومثل

---

(١) تفسير القرطبي (٢/٢٤٥).

ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)﴾ [الأنعام: ١] أي: يعدلون به غيره فيجعلون له من خلقه عدلاً.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم: ٦٥]. أي: لا شيئاً يساميه ولا نداً ولا عدلاً ولا نظيراً له يساويه، فأنكر التشبيه والتمثيل. وبهذا يتبين لنا أن تنزيهه سبحانه عن العيوب والنقائص واجب لذاته، كما دلت على ذلك سورة الإخلاص وغيرها من سور القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ(١).

* * *

---

(١) ينظر: الرسالة التدمرية ص ٧، ٨.

وسطية القرآن في باب الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة أصل من أصول الإيمان، لا يتم الإيمان إلا به، والملائكة من عوالم الغيب التي امتدح الله المؤمنين بها، تصديقاً لخبر الله سبحانه وإخبار رسوله ﷺ وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى في كتابه وسنَّة نبيه ذلك بحيث أصبح الإيمان بها واضحاً، وليس فكرة غامضة.

وبيَّن الله سبحانه وتعالى الانحراف الذي وقع فيه الناس في اعتقادهم في الملائكة منذ القديم فهناك من عبدهم، وهناك من ظن أنهم بنات الله كمشركي العرب الذين عبدوهم، وأما الفلاسفة فإنهم يرون أن الملائكة هم الأفلاك التي نراها في الفضاء وبعضهم أنكر وجودهم، وقالوا: هي أوهام، وأما اليهود فعادوا بعضهم ووصفوا الملائكة بأنهم يشربون ويأكلون⁽¹⁾.

وذكرت التوراة المحرفة في سفر التكوين وبعض أسفارهم أن الملائكة لا تأكل ولا تشرب واضطرب أمرهم في هذا الشأن، واستزلهم الشيطان، وتصور التوراة جبريل عليه السلام بأنه شيطان يصنع الغواية، يغوي الأنبياء؟

جاء في التوراة: (فقال الرب: من يغوي آخاب فيصعد ويسقط في رامون جلعاد، فقال: هذا هكذا، وقال ذاك: هكذا، ثم خرج الروح - يعني: جبريل - ووقف أمام الرب وقال: أنا أغويه، وقال له الرب: بماذا؟ فقال: أخرج وأكون روح كذب في أفواه جميع أنبيائه فقال: إنك تغويه وتقتدر؟ فاخرج وافعل هكذا)⁽²⁾.

يا سبحان الله يجعلون جبريل روح كذب في أفواه جميع الأنبياء

---

(١) بتصرف من الإسلام في مواجهة الاستشراق، عبدالعظيم المطعي ص١٩٥.

(٢) سفر التكوين، الإصحاح ١٨ الفقرات: ١ - ٨.

والرب يشجعه على ذلك؟! هذا من تحريف اليهود عليهم غضب الله الشديد.

وجاء القرآن الكريم بالحق في بيان هذا الركن الإيماني ووضح ما ينفع الناس ويدلهم على الصواب والصراط المستقيم. لذا، فإن المسلم يعتقد اعتقاداً جازماً بأن لله ملائكة موجودين مخلوقين من نور، وأنهم ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ [التحريم: ٦]. وأنهم قائمون بوظائفهم التي أمرهم الله بالقيام بها. ولا يصلح إيمان عبد حتى يؤمن بوجودهم، وبما ورد في حقهم من صفات وأعمال في كتاب الله سبحانه، وسنة رسوله ﷺ من غير زيادة ولا نقصان، ولا تحريف.

فوجود الملائكة ثابت بالدليل القطعي، ومن هنا نعلم أن إنكار وجودهم كفر بنص القرآن العظيم. قال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

والذي يجمع الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، التي تكلمت عن الملائكة، وأوصافهم وأعمالهم وأحوالهم، يعرف ما أوكل إليهم من أعمال وعلاقتهم بالله وأنهم عباده وخلقه وسفراؤه إلى الأنبياء.

وأما حقيقة الملائكة، وكيف خلقهم، وتفصيلات أحوالهم، فقد استأثر سبحانه بها، وهذا من وسطية الإسلام وحكمة الرحمان، حيث أن الله سبحانه وتعالى يكشف للناس ما يحتاجون إليه، ويصلح أحوالهم في المعاش والمعاد، وما تطيقه عقولهم، فالله سبحانه وتعالى لم يطلعنا على جميع المغيبات، سواء منها ما تعلق بجلاله وصفاته وأسمائه وما تعلق بمخلوقاته الغيبية.

هذا منهج الإسلام في بيان حقيقة الملائكه، تظهر فيه ملامح الوسطية بعيداً عن الغلو والإفراط والتفريط.

والمطلوب من المؤمن أن يؤمن بالملائكة إيماناً تفصيلياً وإجمالياً، فيجب عليه الإيمان بالملائكة الذين وردت أسماؤهم في الكتاب أو السُّنة

بالتفصيل، ومن هؤلاء رؤساؤهم الثلاثة جبريل، وميكائيل، وإسرافيل(١). فجبريل هو الملك الموكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح. وقد عادته اليهود ظلماً وعدواناً وانتكاساً وبُعداً عن الصراط المستقيم.

وقد أثنى الله سبحانه عليه في القرآن أحسن الثناء ووصفه بأجمل الصفات، فقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾ [النجم: ٥، ٦].

وأما ميكائيل فهو الملك الموكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان(٢). وأما إسرافيل فهو: الملك الموكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم. ومن الملائكة الذين ورد ذكرهم في القرآن مالك خازن النار. فهؤلاء وغيرهم ممن ورد ذكرهم في أحاديث ثبتت صحتها يجب الإيمان بهم، وبما نيط بهم من الوظائف والأعمال، وأما الملائكة الذين لم يرد ذكرهم، فيجب أن نؤمن بهم بصورة إجمالية، ونؤمن بما ذكر من أصنافهم، وأفعالهم في القرآن والسُّنة فنؤمن بالكرام الكاتبين الذي جعلهم الله علينا حافظين. كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]. وقد ذكر أنهم اثنان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعمال، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه واحد من أمامه وواحد من ورائه، فهو بين أربعة ملائكة(٣).

وروى الإمام مسلم عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة**، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: **وإياي، لكن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير**»(٤).

---

(١) الكواشف الجلية عن معاني الوسطية ص ٣٦، وشرح الطحاوية (٤٠٨/٢).

(٢) ينظر شرح الطحاوية (٥٥٨/٢، ٥٥٩).

(٣) إغاثة اللهفان: (١٢٢/٢).

(٤) مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، (٢٦١٧/٤) رقم (٢٨١٤)، وأحمد (٣٨٥/١) وغيرهم.

ونؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين. ولم يصرح القرآن باسمه، ولا الأحاديث الصحيحة، وجاء في بعض الآثار تسميته بعزرائيل(١) فالله أعلم.

ونؤمن بحملة العرش، الذين أخبر عنهم الله في القرآن. ونؤمن كذلك بالملائكة الموكلين بالنار، أعاذنا الله منها، وهم الزبانية، ومقدموهم تسعة عشر. ونؤمن أيضاً بالملائكة الموكلين بالجنان.

وبذلك يكون الإسلام قد رسم لنا منهج الوسطية في إيماننا بالملائكة، وهذا يبعدنا عن الوقوع في الخرافات والأوهام التي وقع فيها من لا يؤمنون بالغيب، ولا يتلقون دينهم عن الوحي الإلهي. وبهذا المعتقد يكون المسلم على منهج الاستقامة الذي أمر الله به وعلى الصراط المستقيم، فإن من يستشعر بقلبه وجود الملائكة جنود الرحمٰن، ويؤمن برقابتهم لأعماله وأقواله، وشهادتهم على كل ما يصدر عنه، يستحيي من الله ومن جنوده، فلا يخالفه ولا يعصيه، لا في العلانية، ولا في السر. إذ كيف له ذلك وهو يعلم أن كل شيء محسوب ومكتوب ومشهود عليه.

وإيمانه بالملائكة الكرام يكسبه الصبر على مجاهدة نفسه وعدم اليأس، والشعور بالأنس والطمأنينة، وبهذا يتضح لنا أن من نعم الله علينا خلقه للملائكة وإخباره لنا عما ينفعنا في معتقدنا في هذه المخلوقات الطائعة العابدة لله عز وجل(٢).

---

(١) أصول الإيمان لمحمد بن عبدالوهاب ص ١٤.

(٢) للتوسع: ينظر: الوسطية في القرآن ص ٣٣٣ وما بعدها.

وسطية القرآن
في باب الإيمان بالكتب السماوية

إن من أصول الإيمان الإيمان بكتب(١) الله المنزلة على رسله وإنها من عند الله سبحانه وتعالى، إلا أن هناك من البشر من أنكر الكتب السماوية جملة وهم الملاحدة، وهناك من حرَّف الكتب السماوية وأضاف إليها ما لم ينزل الله به من سلطان، وهم اليهود والنصارى وقعوا في الغلو وفي الإفراط وابتعدوا عن الصراط المستقيم، وقع اليهود في التحريف(٢)، ووقع فيه النصارى(٣) كذلك، وقد وضح الله سبحانه وتعالى ما وقع فيه أهل الكتاب من التحريف والتبديل.

فأما اليهود فقد تفننوا في التزوير، وأضافوا في كتابهم المقدس وحذفوا منه واتبعوا كافة الأساليب الشيطانية وقد بيَّن الله في كتابه العزيز أنواعاً من تحريف اليهود للتوراة.

أولاً: إلباس الحق بالباطل: كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: ٧١].

ومن أبلغ الصور وأقبحها في إلباس الحق ادعاء الكهنة والأحبار - في التوارة التي بأيديهم - أن هارون عليه السلام هو الذي جمع الذهب من بني إسرائيل واشترك معهم في صناعة العجل الذهبي، ووافقهم على عبادته من دون الله، وفي الوقت نفسه يبرئون السامري، فهارون الذي تحمل المشاق عليه الصلاة والسلام في سبيل إقناع فرعون بالتوحيد جعلوه داعية الشرك

---

(١) كما في حديث جبريل السابق.

(٢) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، للخلف ص ٩٦ - ١٠٢.

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٦، ٣٤٧.

والكفر، ولكن القرآن الكريم كذبهم، وبيَّن حقيقة الأمر(١). ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [طه: ٨٧، ٨٨]. . . الآية. فهذا هو الصدق حقاً إنما عمل لهم العجل السامري، أما هارون فنهاهم ولكنهم عصوه وكادوا يقتلونه(٢).

النوع الثاني من التحريف: كتمان الحق:

لا شك أن الله حق، ولا يقول إلا حقاً، والتوراة التي أنزلت على موسى كلها حق؛ لأنها كلام الله تعالى؛ ولكن بني إسرائيل كانوا يكتمون الحق قاصدين بذلك إخضاع كتاب الله لأهوائهم وشهواتهم، فالآيات التي يرون فيها منفعة لهم عاجلة أو تكون في جانب حجتهم يقرُونها، وأما الآيات التي يرون أن فيها دليلاً عليهم فيكتمونها.

ومن أعظم ما كتمه أهل الكتاب هو ما وجدوه في كتبهم من صفات محمد ﷺ واختيار الله له وإرساله إلى الناس أجمعين، وقد كانوا يعرفونه في كتبهم كما يعرفون أبناءهم ولكنهم إذا سُئلوا عن ذلك كتموا(٣).

وقد بيَّن عز وجل صفاته ﷺ الكاملة في التوراة والإنجيل. ومع هذه الأوصاف الواضحة التي كانوا يجدونها مكتوبة عندهم أنكروا نبوته ﷺ وكتموا ما علموه. وبقي مع هذا إشارات تدل على البشارة بمحمد ﷺ(٤).

النوع الثالث: إخفاء الحق:

أهل الكتاب يخفون من أحكام التوراة الشيء الكثير. فمن الأحكام التي أخفاها اليهود حكم رجم الزاني والمحصن، حيث جاؤوا إلى النبيّ ﷺ

---

(١) انظر: الفصل لابن حزم (١/٢٥٦).

(٢) كما في سورة طه، الآيات: ٨٧ ـ ٩١.

(٣) انظر: تفسير البغوي (١/٦٧، ١٦٢، ٣١٥).

(٤) ينظر: البشارة بني الإسلام في التوراة والإنجيل، أحمد السقا، ط: دار الجيل، بيروت، ١٤٠٦هـ.

برجل منهم وامرأة قد زنيا، فقال لهم: «**كيف تفعلون بمن زنى منكم؟** قالوا: نحممهما ونضربهما. فقال: **لا تجدون في التوراة الرجم؟** فقالوا: لا نجد فيها شيئاً. فقال لهم عبدالله بن سلام كذبتم، فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فوضع مدارسها الذي يدرسها منهم كفه على آية الرجم، فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها، ولا يقرأ آية الرجم، فنزع يده عن آية الرجم، فقال: **ما هذه؟** فلما رأوا ذلك قالوا: هي آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما . . . الحديث»(١).

النوع الرابع: ليُّ اللسان:

من أنواع تحريف اليهود للتوراة: لي اللسان، فهم يلوون ألسنتهم ويعطفونها بالتحريف، ليلبسوا على السامع اللفظ المنزل بغيره، ويفتلون ألسنتهم حين يقرؤون كلام الله تعالى لإمالته عما أنزله الله عليهم إلى اللفظ الذي يريدونه.

ومن التحريف بليِّ اللسان ما كان يفعله اليهود مع رسول الله ﷺ بقولهم: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ ويقصدون معنى اسمع لا سمعت، أي: يدعون على النبيّ ﷺ، وقد كان المسلمون يقولون للنبيّ ﷺ راعنا، من المراعاة والمعنى فأرع سمعك لكل منا، فلما سمع اليهود هذه اللفظة اغتنموا الفرصة في التحريف، لأن معناها عندهم السب والطعن بمعنى: يا أحمق(٢).

النوع الخامس: تحريف الكلام عن مواضعه:

أثبت الله عز وجل على أهل الكتاب هذا النوع من التحريف. وهذا النوع من التحريف له أربع صور كالتالي:

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب التفسير، سورة آل عمران باب: قل فأتوا بالتوراة (٢٢٤/٨).

(٢) انظر: تفسير البغوي (١٠٢/١، ٤٣٨).

١ ـ تحريف التبديل: وهو وضع كلمة مكان كلمة، أو جملة مكان جملة.

٢ ـ تحريف بالزيادة: ويكون بزيادة كلمة أو جملة.

٣ ـ تحريف بالنقص: وهو إسقاط كلمة أو جملة من الكلام.

٤ ـ تحريف المعنى: تبقى الكلمة أو الجملة كما هي ولكنهم يجعلونها محتملة لمعنيين، ثم يختارون المعنى الذي يتفق مع أهوائهم وأغراضهم(١).

تحريف النصارى للإنجيل:

وأما النصارى، فقد ضيعوا الإنجيل وبذلك ابتعدوا عن الصراط المستقيم. والنتيجة التي لا مفر من التسليم بها أن الأناجيل القانونية الموجودة الآن ما هي إلا كتب مؤلفة. فلقد كتبها أناس مجهولون، في أماكن غير معلومة، وفي تواريخ غير مؤكدة، والشيء المؤكد أن هذه الأناجيل مختلفة غير متآلفة(٢)، بل إنها متناقضة مع نفسها، ومع حقائق العالم الخارجي، لأنها فشلت في تنبؤات كثيرة، كالقول بنهاية العالم، وهذا القول قد يضايق النصراني العادي، بل قد يصدمه، ولكن بالنسبة للعالم النصراني فقد أصبح ذلك عنده حقيقة مسلم بها(٣) لما أجراه من أبحاث.

فالأناجيل وقع فيها تحريف عظيم، ولا يعتمد عليها ولا مخرج من هذا التيه إلا بالدخول في الإسلام. والحق الذي لا يماري فيه منصف أنه لا يوجد اليوم على ظهر الأرض كتاب تصلح نسبته إلى الخالق تبارك وتعالى سوى القرآن الكريم.

---

(١) التوراة: دراسة وتحليل للدكتور محمد شلبي شتيوي ص ٨٣.

(٢) ينظر: دراسات في الأديان للخلف ص ١٩١ ـ ٢٠١، وما بعدها.

(٣) انظر: المناظرة بين الإسلام والنصرانية ص ٣٥ ـ ٥٠.

ومن وسطية الإسلام في ركن الكتب السماوية بيانه ما وقع فيها من الانحراف والابتعاد عن الصراط المستقيم وأعطانا القول الفصل في ذلك ولم يترك شيئاً ما يفيدنا وينفعنا فيما يتعلق بهذا الشأن إلا بيَّنه.

فبيَّن سبحانه وتعالى أن التوراة أصلها من عند الله قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤].

وبين سبحانه وتعالى أن الإنجيل من عند الله إلا أن علمائهم حرفوه، وأخبر سبحانه وتعالى أن الزبور أنزلها على داود عليه السلام. وأخبرنا سبحانه عن الصحف التي أنزلها على إبراهيم وموسى بقوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٦، ٣٧].

وأما الكتب الأخرى التي نزلت على سائر الرسل، فلم يخبرنا الله تعالى عن أسمائها، وإنما أخبرنا سبحانه أن لكل نبي أرسله الله، رسالة بلغة قومه.

ولذا، فيجب علينا أن نؤمن بهذه الكتب التي لم تُسم إجمالاً، ولا يجوز لنا أن ننسب كتاباً إلى الله تعالى سوى ما نسبه إلى نفسه مما أخبرنا عنه في القرآن الكريم، أو صح عن رسوله ﷺ.

ومن وسطية الإسلام وعدله في باب الإيمان بالكتب السماوية بيانه في القرآن الكريم أن هذه الكتب نزلت بالحق والنور والهدى وتوحيد الله سبحانه في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأن ما نسب إليها مما يخالف ذلك إنما هو من تحريف البشر وصنعهم. وأن الله ميز القرآن وخصه عن سائر الكتب المقدسة التي سبقت نزوله بأمور من أهمها:

أنه تضمن خلاصة الرسالات الإلهية، وجاء مؤيداً ومصدقاً لما جاء في الكتب السابقة من توحيد الله، وعبادته، ووجوب طاعته، وجمع كل ما كان متفرقاً في تلك الكتب من الحسنات والفضائل، وجاء مهيمناً ورقيباً عليها، يقر ما فيها من حق، ويبين ما دخل عليها من تحريف وتغيير. وأنه جاء بشريعة عامة للبشر فيها كل ما يلزمهم لسعادتهم في الدارين نسخ بها جميع الشرائع العملية التي قبله وأثبت فيها الأحكام النهائية الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان.

وأن الله أنزل القرآن الكريم على رسوله محمد ﷺ للناس كافة، وليس خاصاً بقوم معينين، كما كانت تنزل الكتب السابقة فكان حفظه من التحريف، وصيانته من عبث الناس، ليبقى ما فيه حجة الله على الناس، قائمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

بعكس الكتب الأولى، فقد وجه الكلام في كل واحد منها إلى أمة معينة دون سائر الأمم، وهي وإن اتفقت في أصل الدين إلا أن ما نزل فيها من الشرائع والأحكام كان خاصاً بأزمنة معينة وأقوام معينين.

لذلك لم يتعهد الله سبحانه بحفظ أي منها على مدى الدهور والأيام والأزمان كما هو الحال بالنسبة للقرآن. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

وسطية القرآن
في أنبياء الله ورسله عليهم السلام

لقد كان من أعظم نعم الله عز وجل على عباده أن بعث فيهم رسلاً منهم يعرفون نسبهم وأخلاقهم، اختارهم من خيارهم واصطفاهم من أوسطهم مكانة ونسباً، يدعون قومهم إلى كل خير ويحذرونهم من كل ما فيه هلاكهم وضررهم في دنياهم وأخراهم، فدعوهم إلى عبادة الله وحده واتباع أوامره واجتناب نواهيه وحذروهم من الشرك بالله ومعصيته، ومخالفة أوامره وارتكاب نواهيه، فما من أمة إلا خلا فيها نذير، وبعث إليها رسلاً أو رسولاً، وذلك رحمة من الله بعباده، ولئلا يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

ولقد بلّغ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ما أرسلوا به، ونصحوا لأممهم غاية النصح، وبيَّنوا لهم أوضح بيان وأجلاه، ما يجب عليهم في دينهم ودنياهم، وما أعد الله لأهل طاعته من ثواب، ولأهل معصيته من عذاب، وسلكوا في تبليغ قومهم رسالات ربهم كل مسلك فدعوهم ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، ولم يسألوهم على ذلك أجراً، بل تحملوا في سبيل نصحهم وهدايتهم ألوان الشدائد وضروب المتاعب والأذى(١).

ولقد تباينت مواقف الأمم تجاه أنبيائهم ورسلهم، ما بين مؤمن بهم متبع لهم، وبين كافر بهم مؤذ لهم، وبين غال فيهم منزل لهم فوق المنزلة التي أنزلهم الله إياها. والذي يهمنا هنا ذكر بعض مواقف أهل

---

(١) انظر: وسطية أهل السُّنة بين الفرق ص ٢٥٦.

الكتاب من اليهود والنصارى مع رسلهم.

موقف اليهود من أنبياء الله ورسله:

لقد كان لليهود من أنبياء الله ورسله مواقف شائنة مخزية تنبئ عن خبث في الطوية، وفساد في النية، واتباع للنفس والهوى، وإعراض عن الحق والهدى. ومواقف اليهود من رسل الله كثيرة منها:

الموقف الأول: أنهم فرقوا بين رسل الله ولم يؤمنوا بهم جميعاً بل آمنوا ببعض وكفروا بالبعض الآخر. قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٍ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

فمن الرسل الذين كفروا بهم وكذبوا برسالتهم، عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، على أنهم كذبوا وكفروا بأنبياء آخرين غيرهما بدليل قتلهم لكثير من أنبيائهم، وقد توعد الله من يؤمن ببعض الرسل ويكفر بالبعض الآخر بالعذاب المهين⁽¹⁾.

الموقف الثاني: أنهم خذلوا أنبياءهم ولم ينصروهم، وقد أخذ الله عليهم الميثاق والعهد لينصرهم عند مجيئهم.

فلم يفوا بميثاقهم، وما لبثوا أن قالوا لموسى عليه السلام لما قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة: ٢١] أن ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة: ٢٢].

ثم ما لبثوا أن أعلنوا خذلانه، وعدم القتال معه، وخلوا بينه وبين

---

(١) ينظر تفسير الطبري (٣٥١/٩).

عدوه. فكان جزاؤهم التيه في الأرض أربعين سنة(١).

الموقف الثالث: أنهم تنقصوا بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ورموهم بارتكاب كبائر الذنوب، وألصقوا بهم كل رذيلة ومن ذلك:

١ ـ ما نسبوه إلى هارون عليه السلام من أنه صنع لهم العجل الذي عبدوه من دون الله.

٢ ـ نسبتهم لبعض الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام شرب الخمر وارتكاب الفواحش والقتل، فنسبوا إلى نوح عليه السلام أنه شرب الخمر حتى سكر وثمل وانكشفت سوءته(٢)، هكذا يصور كتاب اليهود المحرف نوحاً عليه السلام ـ الذي مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً ـ في صورة فاسق لا يفيق من السكر، قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

ونسبوا إلى نبي الله لوط عليه السلام الزنى بابنتيه، فقالوا: إن ابنتيه تآمرتا عليه وأسقتاه خمراً حتى ثمل وزنى بهما وحملتا منه ذكر ذلك في سفر التكوين(٣). وهذا نبي الله الملك الصالح دواد عليه السلام تنسب إليه التوراة المزعومة الزنى بإحدى زوجات قائد من قواد جنوده فخشي افتضاح أمره فاحتال بقتله، وتزوج امرأته من بعده، ثم ذكروا أن داود طلب عودة أوريا زوج المرأة المزعومة من المعركة ليقيم مع زوجته. في محاولة من داود لإخفاء جريمته ونسبة الحمل لأوريا، ولكن أوريا لم يدخل على أهله، ولما يئس منه داود كتب إلى قائده يأمره بأن يجعل أوريا في مقدمة الجيش والتراجع عنه عند اشتداد الخطر ليهلك، ذكر ذلك في (سفر صموئيل الثاني)(٤).

---

(١) كما ذكر الله ذلك في سورة المائدة، الآية: ٢٦.

(٢) سفر التكوين، إصحاح ٩ فقرة: ٢٠.

(٣) انظر: سفر التكوين، إصحاح ١٩ فقرة ٣٠ ـ ٣٨.

(٤) سفر صموئيل الثاني، إصحاح ١١ فقرة: ١٤، ١٦ ـ ٢٦.

الموقف الرابع: أنهم قتلوا بعض أنبيائهم:

لقد سجل الله عليهم في القرآن الكريم هذا الموقف المشين من أنبيائهم في غير ما آية، مقرعاً لهم وموبخاً على هذا الصنيع القبيح، والجرم العظيم الذي ارتكبوه بحق من أرسل لهدايتهم وبعث لإرشادهم إلى صراط الله المستقيم.

ومن أعظم الأنبياء الذين قتلوهم زكريا وابنه يحيى عليهما السلام.

وذكر الإمام ابن جرير⁽١⁾ وغيره قتل بني إسرائيل زكريا عليه السلام كما قتلوا ابنه يحيى، وقد أجمعوا على قتل المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، ولكن الله حفظه من كيدهم، ورفعه إليه، وألقى شبهه على غيره فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدون أنهم قتلوا المسيح عليه السلام، كما ذكر ذلك عنهم الحق تبارك وتعالى.

هذا الخلق ظل ملازماً لهم تجاه أنبياء الله ورسله وكل من يأمرهم بالحق والعدل من الناس في كل زمان كما قال تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١]، فلم يكن ذلك منهم مع أنبيائهم فقط، فقد حاولوا قتل نبينا محمد ﷺ، فدسوا له السم صلوات الله عليه وسلامه بغية قتله، وحاول بنو النضير اغتياله بإلقاء الصخرة عليه⁽٢⁾ جرياً على عادتهم في الخبث والكيد لرسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما ثبت في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه في قصة الشاة المسمومة⁽٣⁾.

فهذا هو موقف يهود من رسل الله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم؛ إيمان ببعض وكفر ببعض، وتنقص منهم وإيذاء، وسب، وشتم، وقذف بارتكاب جرائم السكر والعربدة، والزنى والقتل، ثم تشريد ومطاردة وقتل

---

(١) انظر: جامع البيان (٦/٢٨٤). وانظر: تفسير ابن كثير (١/١٤٦).

(٢) انظر: ابن هشام السيرة (٢/١٩٠).

(٣) البخاري، كتاب الهدية (٥/٢٣٠) رقم ٢٦١٧.

لبعضهم، وهي مواقف تدل على مبلغ تفريط القوم وبعدهم عن الوسطية وعن الصراط المستقيم، وعن العدل والاستقامة في حق أنبياء الله ورسله، وعظم تقصيرهم وشدة جفائهم وعداوتهم وبما غلوا وأفرطوا في حق بعض أنبيائهم، وأنزلوهم فوق مكانة النبوة والرسالة، كما وقع منهم في حق عزير إذ قالوا: إنه ابن الله.

ومن مظاهر غلوّهم اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، كما أخبر المصطفى ﷺ بذلك ولعنهم لأجله فقال: **«لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**(١).

فالقوم أهل غلو في بعض أنبيائهم، ولكن لما كان الغالب عليهم الجفاء ظن بعض الناس أنه لم يقع منهم غلو، لكثرة ما ورد في القرآن من نسبة قتل الأنبياء والتكذيب إلى اليهود، وهذا على وجه العموم وإلا فقد ذكر الله أن أهل الكتاب ليسوا سواء فمنهم من آمن وأكثرهم الكافرون.

موقف النصارى:

إذا كان اليهود غلب عليهم التفريط والتقصير والجفاء في حق أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين مع غلوهم في بعضهم كعزير عليه السلام، فإن النصارى قد ذهبوا إلى أقصى الطرف المعاكس فغلب عليهم الغلو والإفراط ولا سيما في نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام، على أنهم فرطوا وقصروا أيضاً في حق الله بل وفي حق عيسى عليه السلام أيضاً، ويمكن ذكر بعض مواقفهم في هذا الأصل في الأمور التالية:

الأمر الأول: أنهم لم يؤمنوا بجميع الرسل والأنبياء، بل فرقوا بينهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض كما فعل اليهود وغلوا في بعض، وهم معنيون أيضاً بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ

---

(١) البخاري: كتاب الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (٥٣٢/١).

ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

إن من النصارى من آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض، حيث آمنوا بعيسى وموسى بزعمهم وكفروا بمحمد ﷺ. وهذا الموقف يدل على كفرهم بمن زعموا أنهم آمنوا به لأن في دين موسى وعيسى عليهما السلام وجوب الإيمان بمحمد ﷺ إذا جاء ومناصرته.

الأمر الثاني: أنهم غلوا وأفرطوا في نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام، ورفعوه فوق المكانة التي جعله الله فيها، وجعلوه فوق المنزلة التي أنزله الله إياها. فلم يؤمنوا به عبداً ورسولاً نبياً، وإنما جعلوه هو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة يشكلون منها الإله، وعبدوه من دون الله عز وجل وأضافوا إليه من الأفعال والأعمال ما لا يصح إضافته ونسبته إلا إلى الله عز وجل وسموا ذلك بقانون الإيمان أو الأمانة على النحو التالي:

١ - الإيمان بإله واحد، أب، ضابط الكل، خالق السماء والأرض، صانع ما يرى وما لا يرى.

٢ - وبرب واحد يسوع، الابن الوحيد المولود من الأب(١).

ولقد ذكر القرآن الكريم غلوّهم في عيسى عليه السلام، وقولهم بألوهيته وبنوته لله عز وجل، وكفّرهم بذلك، فقال جل وعلا: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

الأمر الثالث: خذلانهم لنبيهم وعدم نصرته، إن من الواجب على اتباع الرسل وخاصة أصحابهم وحوارييهم، أن ينصروهم ويعززوهم ويفدوهم بأنفسهم وأموالهم كما تقدم ذكر أخذ الله ميثاق بني إسرائيل على نصر الرسل

---

(١) انظر: الأسفار المقدسة قبل الإسلام لعبدالواحد وافي ص ١١١، الملل والنحل: (٢٨/٢) للشهرستاني.

ومؤازرتهم. ولكن قوم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتلاميذه خذلوه ولم ينصروه عندما أراد أعداؤه أخذه وقتله، بل أسلمه بعضهم ودل عدوه عليه لولا أن الله رفعه وألقى شبهه على بعض تلاميذه.

وقد أثبت النصارى أن تلاميذ المسيح وأصحابه أسلموه لليهود وخلوا بينهم وبينه. وقبض بعضهم ثمناً لذلك، وهذا غاية الخذلان ذكر ذلك في إنجيل متى⁽¹⁾.

موقف المسلمين من أنبياء الله ورسله ووسطيتهم في ذلك:

جاءت عقيدة المسلمين في أنبياء الله ورسله عقيدة معتدلة وسطاً، لا غلو فيها ولا إفراط ولا تفريط أو تقصير، ولم يضلوا فيها كما ضلت الأمم قبلهم؛ لأنهم لم يقولوا بمجرد الرأي والهوى، ولم يبتدعوا ما لم يأذن به الله ولا رسوله ﷺ، بل جاء ذلك نابعاً من كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ كسائر عقائدهم ويظهر ذلك من خلال الأمور الآتية:

الأمر الأول: أن هذه الأمة آمنت بجميع الأنبياء والمرسلين ولم تفرق بين أحد منهم فتؤمن ببعض وتكفر ببعض⁽²⁾ كما فعل اليهود والنصارى، ذلك أن الله عز وجل أمرها في كتابه الكريم بقوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦].

وعد الرسول ﷺ الإيمان بالرسل أحد أركان الإيمان الستة التي لا يكون المرء مؤمناً إلا إذا استكملها فقال ﷺ في حديث جبريل المشهور:

---

(١) متى، الإصحاح ٢٦ فقرة: ١٤ ـ ٥٧. وانظر: قصة الصلب في دراسات في الأديان للخلف ص ٣٠٦ ـ ٣١٢.

(٢) ينظر: تفسير ابن جرير عن قتادة (١١١/٣).

«الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»[1].

فبيَّن الإسلام لهذه الأمة طريق الاستقامة فاستجابت لأمر الله ورسوله وآمنت برسل الله جميعاً، وشهد الله لها بهذا الإيمان في محكم كتابه فقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وبلغ من عمق إيمانها برسل الله وتصديقها لهم، أنها تشهد لهم على أممهم بالبلاغ يوم المعاد[2].

الأمر الثاني: أنها لم تنقص أحداً منهم، كما فعل غيرها من الأمم، بل وقرتهم وعزرتهم ونصرتهم، ونفت عنهم كل ما يقدح في أشخاصهم أو نبوتهم ورسالتهم، وأثبتت عصمتهم من الكفر، وارتكاب الكبائر قبل الرسالة، وبعدها، وفي الصغائر خلاف، والجمهور على عصمتهم من تعمدها[3] لأنهم صفوة الله من خلقه، كما أخبر الله في غير ما آية من كتابه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقال عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩]. وقال عن عدد من رسله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٤٧]، وقال عن جميع رسله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ﴾ [الحج: ٧٥].

فهذه الأمة تؤمن وتعتقد أن رسل الله وأنبياءه أفضل الخلق وأطهرهم

---

[1] مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام (١/٣٦، ٣٧).

[2] كما جاء عند الإمام البخاري في كتاب التفسير عند قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (٨/١٧١) رقم ٤٤٨٧.

[3] انظر: لوامع الأنوار للسفاريني: (٢/٣٠٣ ـ ٣٠٥).

وأزكاهم، وأنهم منزهون عن الدنايا، مبرؤون من كل سوء صادقون في أقوالهم، قدوة وأسوة في أفعالهم وأعمالهم، لا يأتون منكراً ولا يقولون زوراً، ولا يستحقون ذماً ولا يستوجبون عقاباً، أمرنا الله بالاقتداء بهم واتباع هديهم.

وترى محبتهم واجبة، ونصرتهم لازمة، لذلك كان نبيها ورسولها محمد ﷺ أحب إليها من النفس والمال، الولد والوالد، كما جاء في الحديث الصحيح عن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»**(١).

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يفدون النبيّ ﷺ بأموالهم وأنفسهم، فكان منهم من يقيه بجسده وقع السهام والنبال كما صنع أبو دجانة(٢) ﵁ في غزوة أحد(٣)، ولم يخذلوه قط أو يتخلفوا عن نصره والقتال بين يديه، حتى قال قائلهم يوم بدر وهو المقداد بن عمرو ﵁(٤): «يا رسول الله امضِ لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد، لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه...»(٥).

الأمر الثالث: أنهم لم يغلوا في مدحهم بالباطل، وإنما قدروهم حق

---

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ، (٥٨/١).

(٢) أبو دجانة هو: سماك بن خرشة، متفق على شهوده بدراً، وكان ممن ذب عن النبيّ ﷺ يوم أحد استشهد باليمامة. انظر: الإصابة (٥٨/٤).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٨٢/٢).

(٤) هو المقداد بن عمرو الكندي، شهد بدراً والمشاهد بعدها، وكان فارساً يوم بدر مات سنة (٣٣هـ) في خلافة عثمان. انظر: الإصابة، لابن حجر (٤٥٤٣/٣).

(٥) سيرة ابن هشام (٦١٥/١).

قدرهم، وعززوهم ونصروهم، وأحبوهم، وعظموهم وأجلوهم غاية التعظيم والإجلال، ولم يبالغوا في إطرائهم والثناء عليهم ولم يجاوزا الحد في ذلك، ولم يرفعوهم فوق المنزلة التي أنزلهم الله إياها. فلم يجاوزا بهم منزلة الرسالة والنبوة ومقام العبودية لله، وهي المنزلة التي أنزلهم الله إياها وأقامهم فيها وخاطبهم بها وذكرها في كتابه العزيز⁽¹⁾.

فمقام الرسالة والعبودية هو المقام الذي شرّف به عباده المرسلين ومنَّ عليهم به، وهم صلوات الله وسلامه عليهم يأبون أن يرفعوا فوق ذلك، وينهون أممهم عنه ويحذرونهم من مجاوزة هذا المقام، قال رسول الله ﷺ: **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله»**⁽²⁾.

فالأنبياء والمرسلون بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ويتزوجون النساء، ولكثير منهم بنون وحفدة وليسوا بآلهة ولا أبناء الله، كما ضل النصارى في عيسى عليه السلام، فهذه منزلة الرسل والأنبياء كما جاءت في القرآن لا إفراط ولا تفريط ولا غلو ولا تقصير فآمنت بها أمة الإسلام، فرسل الله عبيد لا يعبدون، ورسل لا يكذبون، بل يطاعون ويتبعون⁽³⁾.

* * *

---

(1) ينظر: وسطية أهل السُّنة بين الفرق ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(2) البخاري، أحاديث الأنبياء باب قول الله ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ (٦/٥٥١) رقم ٣٤٤٥. وهو عند الدارمي في الرقاق (٢/٤١٢) رقم ٢٧٨٤.

(3) ينظر: الوسطية في القرآن ص ٣٨٠.

وسطية القرآن في باب الإيمان باليوم الآخر

أصناف المكذبين بالبعث:

لقد أنكر كثير من الناس قديماً وحديثاً البعث والنشور، وبعض الذين قالوا بإثباته صوروه على غير الصورة التي أخبرت بها الرسل، وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى قول المكذبين وذمهم وكفرهم وتوعدهم، قال تعالى: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٥)﴾ [الرعد: ٥]، وقال: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠)﴾ [الأنعام: ٢٩، ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٤٩ ـ ٥١].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أصناف المكذبين بالبعث والنشور من اليهود والنصارى والصابئة والفلاسفة ومنافقي هذه الأمة فقال: (وإنما المخالف في ذلك أحد رجلين إما كافر، وإما منافق:

أما الكافر فإن اليهود والنصارى ينكرون الأكل والشرب والنكاح في الجنة، يزعمون أن أهل الجنة إنما يتمتعون بالأصوات المطربة والأرواح الطيبة مع نعيم الأرواح، وهم يقرون مع ذلك بحشر الأجساد مع الأرواح ونعيمهما وعذابهما، وأما طوائف من الكفار وغيرهم من الصابئة والفلاسفة ومن وافقهم فيقرون بحشر الأرواح فقط، وأن النعيم والعذاب للأرواح فقط.

وطوائف من الكفار والمشركين وغيرهم ينكرون المعاد بالكلية، فلا يقرون لا بمعاد الأرواح، ولا الأجساد، وقد بيَّن الله تعالى في كتابه على لسان رسول الله أمر معاد الأرواح والأجساد ورد على الكافرين والمنكرين لشيء من ذلك، بياناً تاماً غاية التمام والكمال.

وأما المنافقون من هذه الأمة الذين لا يقرون بألفاظ القرآن والسُّنة المشهورة فإنهم يحرفون الكلام عن مواضعه، ويقولون: هذه أمثال ضربت لنفهم المعاد الروحاني، وهؤلاء مثل القرامطة الباطنية الذين قولهم مؤلف من قول المجوس والصابئة، ومثل المتفلسفة الصابئة المنتسبين إلى الإسلام وطائفة ممن ضاهوهم: من كاتب أو متطبب، أو متكلم، أو متصوف، كأصحاب رسائل (إخوان الصفا) وغيرهم، أو منافق، وهؤلاء كلهم كفار يجب قتلهم باتفاق أهل الإيمان)(١).

وذكر رحمه الله تعالى في موضع آخر قولهم بأنها أمثال مضروبة لتفهيم ما يقوم بالنفس بعد الموت من اللذة والألم، لا بإثبات حقائق منفصلة يتنعم بها، ويتألم بها (٢).

وحقيقة قول هؤلاء، أن الله لم يكن صادقاً في إخباره عن حقائق ما في المعاد، وكذلك رسوله ﷺ ولذلك سمى شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الصنف من المتفلسفة المخالف لما عليه المسلمون في أمر المعاد (بأهل التخييل) وقال فيهم: (فأهل التخييل هم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم، ومن متكلم ومتصوف، ومتفقه، فإنهم يقولون: إن ما ذكره الرسول من أمر الإيمان بالله والآخرة، إنما هو تخيل للحقائق لينتفع به الجمهور، لا أنه بيَّن به الحق، ولا هدى الخلق، ولا أوضح الحقائق)(٣).

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣١٣/٤).

(٢) المرجع السابق (٢٣٨/١٣).

(٣) مجموع الفتاوى: ٣١/٥.

وقد قسم الدكتور عمر الأشقر المكذبين بالبعث والنشور إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الملاحدة الذين أنكروا وجود الخالق، ومن هؤلاء كثير من الفلاسفة الدهرية الطبائعية، ومنهم الشيوعيون في عصرنا، وهؤلاء ينكرون صدور الخلق عن خالق، فهم منكرون للنشأة الأولى والثانية، ومنكرون لوجود الخالق أصلاً. ولا يحسن مناقشة هؤلاء في أمر المعاد، بل يناقشون في وجود الخالق ووحدانيته أولاً ثم يأتي إثبات المعاد بعد ذلك، لأن الإيمان بالمعاد فرع عن الإيمان بالله.

الثاني: الذين يعترفون بوجود الخالق، ولكنهم يكذبون بالبعث والنشور، ومن هؤلاء العرب الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]. وهم القائلون فيما حكاه الله عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [النمل: ٦٧، ٦٨]. وهؤلاء يدَّعون أنهم يؤمنون بالله، ولكنهم يدَّعون أن قدرة الله عاجزة عن إحيائهم بعد إماتتهم، وهؤلاء هم الذين ضرب الله لهم الأمثال، وساق لهم الحجج والبراهين لبيان قدرته على البعث والنشور، وأنه لا يعجزه شيء، ومن هؤلاء طائفة من اليهود يسمون بالصادقيين، يزعمون أنهم لا يؤمنون إلا بتوراة موسى، وهم يكذبون بالبعث والنشور والجنة والنار.

الثالث: الذين يؤمنون بالمعاد على غير الصفة التي جاءت بها الشرائع(١).

---

(١) ينظر: اليوم الآخر، القيامة الكبرى ص ٧٢ وما بعدها.

نظرة تحليلية في بعض نصوص اليوم الآخر عند أهل الكتاب:

لا شك أن الكتب السماوية التي أنزلها الحق تبارك وتعالى كانت تزخر نصوصها بذكر اليوم الآخر، والتخويف منه، والتبشير بما أعده الله للمؤمنين به في جنات النعيم، والتحذير من النار وأهوال القيامة، إلا أن هذه الكتب طرأ عليها تحريف كثير، وذهب كثير من نصوصها التي تتعرض لليوم الآخر⁽¹⁾. ففي التوراة التي تنسب إلى موسى لا نجد إلا نصاً واحداً يصرح بيوم القيامة، وهو في التوراة السامرية⁽²⁾ صريح للغاية، ولكنه في التوراة العبرية⁽³⁾ يحتمل معنيين.

ففي التوراة السامرية: (أليس هو مجموعاً عندي مختوماً في خزائني إلى يوم الانتقام والمكافأة وقت تزل أقدامهم)⁽⁴⁾.

وفي التوراة العبرانية هكذا: (أليس ذلك مكنوزاً عندي مختوماً عليه في خزائني، لي النقمة والجزاء في وقت تزل أقدامهم)⁽⁵⁾.

فنص السامرية يدل على أن الفصل إنما يكون في يوم القيامة الذي سماه يوم الانتقام والمكافأة أو يوم البعث أو الموقف العظيم⁽⁶⁾، أما نص العبرانية فإنه يجيز أن يكون الانتقام في الدنيا ويجيز أن يكون في الآخرة. ولذلك، فإن الصدوقيين من اليهود الذين لا يؤمنون إلا بتوراة موسى العبرية

---

(١) المرجع السابق ص ٩٢.

(٢) التوراة السامرية: هي المعتبرة عند السامريين، وهي النسخة العبرية ولكنها تحتوي ٧ أسفار (أسفار موسى الخمسة وسفر يوشع وسفر القضاة) وهم لا يعترفون بالأسفار الأخرى، إظهار الحق (١/١٢٣).

(٣) وهي المعتبرة عند اليهود وجمهور البروتستانت، المرجع السابق (١/١٢٣).

(٤) سفر التثنية الاشتراع، إصحاح ٣٢ فقرة: ٣٤ ـ ٣٥ من التوراة السامرية.

(٥) التوراة العبرانية نقلاً عن اليوم الآخر، القيامة الكبرى ص ٩٢.

(٦) الفكر الديني الإسرائيلي ص ٢٥٢.

لا يؤمنون بالبعث والنشور، لعدم وجود دلالة تدل على البعث والنشور⁽¹⁾.

أما أسفار الأنبياء الأخرى ففيها بعض النصوص التي تصرح بالبعث والنشور.

١ - ففي سفر دانيال: (كثيرون من الراقدين تحت التراب يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار، والازدراء الأبدي)⁽٢⁾.

٢ - وفي سفر المزامير يذكر الحشر إلى النار فيقول: (مثل الغنم إلى النار يساقون، الموت يرعاهم، ويسودهم المستقيمون غداة، وصورتهم تبلى، والهاوية مسكن لهم)⁽٣⁾.

وجاء في بعض الأناجيل شيء من ذلك، ومنها:

١ - ما جاء في إنجيل لوقا إشارة إلى عذاب القبر، فقد جاء فيه: (ومات الغني ودفن، فرفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب)⁽٤⁾. فالمقبور من أهل الفجور يكون في العذاب ويرى مقعده من النار، والهاوية هي النهار.

٢ - وفي إنجيل متى: (فإن أعثرتك يدك أو رجلك فاقطعها وألقها عنك خير لك أن تدخل الحياة أعرج أو أقطع من أن تلقى في النار الأبدية ولك يدان أو رجلان)⁽٥⁾.

ومن عقائد النصارى محاسبة المسيح للناس يوم القيامة كما جاء في

---

(١) الفكر الديني الإسرائيلي ص ٢٥٩، واليهودية ص ٢٢٣. وانظر: موسوعة الأديان والمذاهب لعبدالرزاق أسود (١/١٩٢).

(٢) سفر دانيال إصحاح: ١٢.

(٣) سفر المزامير إصحاح ٥٥ فقرة: ٥.

(٤) إنجيل لوقا إصحاح ١٦ فقرة: ٢٢.

(٥) إنجيل متى إصحاح ١٨ فقرة: ٨

رسالة بولس الثانية ورسالته إلى أهل رومية ورسالته إلى أهل أفسيمس) وكذلك في إنجيل يوحنا أن الأب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للابن⁽¹⁾.

٣ - ومن أكثر الكتب التي تحدثت عن الجنة والنار إنجيل برنابا، فقد تحدث عن أهل الجنة، وأنهم يأكلون ويشربون، ولكنهم لا يتبولون، ولا يتغوطون، لأن طعامهم وشرابهم ليس فيه خبث ولا فساد، ولكن النصارى يكذبون بهذا الإنجيل الذي ظهر في عصرنا هذا. النصارى يعتقدون أن الذي ينعم أو يعذب في القيامة هو الروح فحسب، وقال بقولهم بعض الذين ينتسبون إلى الإسلام من الفلاسفة والفرق الباطنية الضالة⁽²⁾.

أما القرآن الكريم، فيدل على البعث واليوم الآخر أوضح دلالة بالأخبار الصادقة والأمثال المضروبة ورد على منكريه وبيَّن ضلالهم وكذلك الفطرة السليمة تدل عليه وتهدي إليه، ومن وسطية القرآن في ذلك جاءت الأدلة بأساليب متنوعة تخاطب الفطرة والعقل، ومنها:

(١) الإخبار بوقوع اليوم الآخر (يوم القيامة):

فمن آمن بالله وصدق رسله وكتبه صدق بكل ما جاء فيه، ومنه البعث والجزاء والحساب والجنة والنار. وقد تنوع ذلك الإخبار إلى:

أ) الإخبار المؤكد كقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ [طه: ١٥]، وقوم: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾ [المرسلات: ٧].

ب) الإقسام بذلك: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾ [الطور: ٧].

(٢) الاستدلال على النشأة الأخرى بالنشأة الأولى:

وهو الاستدلال على الخلق الثاني بالخلق الأول كقوله: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ

---

(١) ينظر في هذا: موسوعة الأديان والمذاهب (٢١٨/١).

(٢) اليوم الآخر، القيامة الكبرى ص ٩٤.

ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: ٦٧].

(٣) الاستدلال بأن القادر على خلق الأعظم قادر على خلق الأدنى، ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

(٤) قدرته تعالى على تحويل الخلق من حال إلى حال.

(٥) ما ذكر الله تعالى من إحياء بعض الأموات.

(٦) ضربه المثال بإحياء الأرض بالنبات.

(٧) الاستدلال بحكمته تعالى على إحياء الأموات للجزاء والحساب على ما عملوا في الدنيا فيجازى كل بعمله الطيب والخبيث(١).

* * *

---

(١) ينظر تفاصيل ذلك في المراجع الآتية: اليوم الآخر للأشقر ص ٧٣، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٢، ٨٨، ٩٠... إلخ. مجموع فتاوى ابن تيمية (٣/٢٩٩، ٤/٣١٢)، تفسير الطبري (١٢/٣٠)، شرح الطحاوية ص٢٠٣، ٤٦٠، التخويف من النار لابن رجب ص ١١٥، ١١٦، ١٤٢، ١٤٣، فتح الباري ٦/٣٦٦، ٣٧٨؛ ١١/٤٢٤، ٤٧٢، ٤٧٥، صحيح مسلم (٤/٢١٨٠، ٢١٨٣، ٢١٨٨)، جامع الأصول لابن الأثير (١٠/٥٤٠)، يقظة أولي الاعتبار ص ٦٧، ٧٢، تفسير ابن كثير (٣/١٦٨، ٤/٤٧١، ٦/٥١٤، ٧/١٨٤)، التذكرة للقرطبي ص ٣٩٢، ٤٠٩، ومشكاة المصابيح للبغوي (٣/٨٨).

وسطية القرآن الكريم في باب القضاء والقدر

وهذا المبحث من أعظم أبواب الإيمان وأهمها؛ لأن القدر نظام التوحيد وقطب الرحا فيه، ولا خروج لأحد عنه من العالمين، وهو بحر لا ساحل له، والشرع فيه سفينة النجاة، من ركبها نجا ومن تخلف عنها فهو من المغرقين(١)، ومما يدل على أهمية هذا الأصل كثرة وروده في نصوص الشرع(٢) التي بينت حقيقته وجلت أمره وأوجبت الإيمان به، ليهلك من هلك عن بينة، وينجى من نجا عن بينة.

والقدر هو كما قال الإمام أحمد رحمه الله «قدرة الله تعالى»(٣).

وهو في الشرع: «ما سبق به العلم وجرى به القلم، مما هو كائن وأنه عز وجل قدر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده ـ تعالى ـ وعلى صفات مخصوصة فهي تقع حسب ما قدرها»(٤).

وقد تكلم العلماء في الفرق بين القضاء والقدر والعلاقة بينهما على أقوال، ولكن الذي يظهر أنهما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا(٥)، مثل الفقير والمسكين والإسلام والإيمان، وقد قيل: «إن القدر بمنزلة المعد

---

(١) ينظر: شفاء العليل لابن النديم (٤٤/١).

(٢) وردت مادة (القدر) في القرآن وحده في (١٣١) موضعاً، ووردت مادة القضاء في القرآن في (٦٣) موضعاً. ينظر: المعجم المفهرس. مادة قدر وقضا.

(٣) ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٣٠٨/٨)، المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد (١٣٥/١).

(٤) لوامع الأنوار البهية للسفاريني (٣٤٨/١).

(٥) ينظر: فتح الباري (٥٠٢/١١) رقم ٦٥٩٧، والدرر السنية (٥١٢/١ ـ ٥١٣).

للكيل والقضاء بمنزلة المكيل، وهذا كما قال أبو عبيدة ـ ﷺ ـ لما أراد الفرار من الطاعون بالشام: أتفر من القضاء؟ قال: أفر من قضاء الله إلى قدر الله، تنبيهاً على أن القدر ما لم يكن قضاء فمرجو أن يدفعه الله فإذا قضى فلا مدفع له»⁽¹⁾.

والراجح أنه لا فرق بينهما في الاصطلاح والله أعلم.

وسأذكر في هذا المبحث بعض الأقوال من الأديان القديمة وليس الغرض الاستقصاء لذلك بل العرض المجمل، ثم بيان وسطية القرآن في هذا الباب ومسلك أهل الحق فيه. وذلك في النقاط الآتية:

أولاً: بعض ما ورد في القرآن عن الأنبياء والمرسلين قبل رسولنا عليه السلام:

حيث إن كل الأنبياء والمرسلين عليهم السلام كانوا على عقيدة واحدة وهي التوحيد الخالص كما أوحى إليهم الله تعالى بأصول الدين ومنها الإيمان بكمال الله في علمه وقدرته وإرادته وخلقه وفي كل ما يتعلق به سبحانه وتعالى:

١ ـ جاء في قصة نوح ومجادلته لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٣٤﴾ [هود: ٣٤].

فهذه الآية دالة على إيمان نوح وإيقانه القدر وأن إرادة الله غالبة ومشيئته نافذة⁽²⁾.

٢ ـ وفي قصة إسماعيل عليه السلام مع أبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

فرضي وسلم وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى التي لا يكون شيء بدونها⁽³⁾.

---

(1) ينظر المفردات للراغب ص ٤٢٢.

(2) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/٢٥١، ٢٥٢)، تفسير ابن سعدي (٣/٢٤).

(3) ينظر: تفسير ابن سعدي (٦/٣٨٩).

٣ ـ وذكر الله قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما أخذت بني إسرائيل الرجفة: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مؤمناً بالقدر مصدقاً به لا يشك(١) في ذلك.

٤ ـ وقالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن: ١٠]. إذاً فهم مؤمنون بأن الله تعالى له إرادة مطلقة حيث ذكروا الخير والشر وأنه بعلم الله وإرادته، وقد حذفوا فاعل الشر ولم ينسبوه إلى الله تعالى تأدباً(٢).

ثانياً: بعض ما ورد في الملل والأديان والطوائف قبل الإسلام:

حيث تكلم في مسألة القدر طوائف شتى مثل: (فلاسفة اليونان ونقلها عنهم السريانيون وتكلم فيها الزرادشتيون كما بحث فيها النصارى)(٣).

١ ـ الفلاسفة اليونانيون لهم مذهبان: مذهب الأبيقوربين القائلين بحرية الإرادة، ومذهب الرواقيين القائلين بأن الإنسان مسير وليس مخيراً(٤). وأما ابن سينا (ت٤٢٨هـ) وأتباعه فيقولون: «إن الله يعلم الكليات لا الجزئيات التي توجب تجدد الإحاطة بها تغيراً في ذات العالم»(٥).

٢ ـ الدهرية والصابئة والمجوس: الدهرية عندهم الدهر هو المبدأ الأساسي وهو ناسخ لمذهب الثنوية(٦)، والصابئة تقول بالجر، وأما المجوس تقول بأن القدر من الإنسان خيره وشره والإنسان هو المحدث لأفعاله بدون

---

(١) ينظر: تفسير الآية عند ابن كثير (٤٧٨/٣).

(٢) ينظر: تفسير الآية عند ابن كثير (٤٢٩/٤).

(٣) فجر الإسلام، أحمد أمين ص ٢٨٤، ط العاشرة، الفرق الإسلامية في الشعر الأموي ص٢٩١.

(٤) ينظر: كتاب أحمد بن حنبل إمام أهل السُّنة لعبدالحليم الجندي ص ٢٥٦، ٣٥٧.

(٥) تهافت الفلاسفة للغزالي ص ١٧٦.

(٦) تاريخ الفلسفة في الإسلام: ج دي بور ص ١٢، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة.

قدرة الله تعالى(١).

٣ ـ قول اليهود: وهم الذين اختلفوا من بعد موسى عليه السلام وقد اشتهر لهم مذهبان: «الربانيون ينفون القدر، والقراؤون يقولون بالجبر»(٢). وفي كتبهم أنه تعالى لا يعلم الغيب وأنه جعل علامات على بيوت بني إسرائيل حتى لا يهلكهم(٣).

٤ ـ قول النصارى: وهم أضل الناس في أبواب العقيدة وفي ذات المعبود حيث ألهوا البشر، ونفوا عن إلههم المشيئة والعلم، ولكن: «الشرقيون يقولون: إن الإنسان مخير والآخرون من مثل الكاثوليك يقولون بالجبر»(٤).

٥ ـ قول مشركي العرب: وقد كان العرب في جاهليتها يقرون بالقدر كما قال الله عنهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨، النحل: ٣٥، الزخرف: ٢٠] الآية . وهذا من الاحتجاج بالقدر على المعاصي وهو لا يفيد، وقد جاء في أشعارهم كثير من ذلك، قال طرفة:

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد(٥)

وقال عنترة:

---

(١) الحياة العلمية في الشام لخليل داود ص ١٢٨.

(٢) أحمد بن حنبل إمام أهل السُّنة للجندي ص ٣٥٧، والملل والنحل للشهرستاني (٢١٢/١)، اليهودية، أحمد شلبي ص ٢٢٧.

(٣) ينظر: سفر التكوين، إصحاح ١٢ فقرة ١٢ ـ ١٣.

(٤) أحمد بن حنبل إمام أهل السُّنة للجندي ص ٣٥٧.

(٥) ينظر: شرح معلقته في شرح المعلقات السبع للزوزني ص ٦٠ ـ ٦٦، وانظر: القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسُّنة للمحمود ص ٨٠ ـ ٨١.

يا عبل أين من المنية مهربي　　　إن كان ربي في السماء قضاها[1]

وغير ذلك مما يوجد في كلامهم وأشعارهم ومقولاتهم.

ولما جاء الله تعالى بالإسلام اهتم بهذا الركن العظيم وبينه أكمل بيان وهو من أولى المسائل التي اعتنى بها الصحابة ﷺ، ووضحها لهم رسول الله ﷺ، فكان ينزل القرآن الكريم بالمسألة ويشرحها لهم عليه الصلاة والسلام، وتلقى الصحابة ذلك بالقبول والإيمان فكانوا أكثر الناس فهماً للقدر وإيماناً به، ولذلك أثر في حياتهم أيما تأثير كالشجاعة والإقدام وعدم الجزع في الحروب والكرم في البذل، وإذا حصل شيء من الخلاف حسمه في حينه عليه الصلاة والسلام. فهداهم الله إلى الحق المبين فأعملوا النصوص جميعها كل في ما ورد فيه وجمعوا بين ما يبدو فيه التعارض ووافقوا العقل والنقل واستقامت لهم الطريقة وابتعدوا عن التشقيقات التي لا طائل تحتها ولم يدخلوا فيما لم يكلفهم الله البحث فيه ولولا ما أثاره خصومهم من أهل البدع لما وجدت الكثير من الأبواب التي ألفوا فيها، لا جهلاً ولا عجزاً ولكن تورعاً وانشغالاً بباب التكليف عن باب التأليف.

وروى عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال: (خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم وهم يختصمون في القدر، هذا ينزع بآية وهذا ينزع بآية فكأنما فقئ في وجهه حب الرمان فقال: **«أبهذا أمرتم؟ أم بهذا وكلتم؟ إن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟ انظروا ما أمرتم به فاتبعوه وما نهيتم عنه فانتهوا»**)[2].

وهذا ديدن الصحابة ﷺ أن يقولوا لرسول الله ﷺ: سمعنا وأطعنا،

---

[1] (١) ديوان عنترة ص ٧٤.

[2] (٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/١٨١، ١٨٥، ١٩٥، ١٩٦)، وعبدالرزاق في المصنف (٢٠٣٦٧) وابن ماجه (٨٥) والبخاري في أفعال العباد ص ٤٣، وهو عند الإمام مسلم رقم (٢٦٦٦) كلهم بألفاظ متقاربة.

ولم يكد يذكر خلاف في القدر بعد ذلك في عهده عليه السلام، وفي عهد عمر ذكر حادثة صبيغ بن عسل وقضى عليها في مهدها، وكذلك في بداية الفتح الإسلامي لبلاد الشام، حين قدم عمر بن الخطاب وعقد مؤتمره الشهير، وكان عنده آنذاك جاثليق(١) يترجم له ما يقول عمر فلما قال عمر: «من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، فنفض الجاثليق جبينه كالمنكر لما يقول عمر! فقال عمر: ما يقول؟ قالوا: يزعم أن الله لا يضل أحداً. قال عمر: كذبت أي عدو الله بل الله خلقك، وقد أضلك، ثم يدخلك النار، أما والله لولا عهد لك لضربت عنقك... فتفرق الناس وما يختلفون في القدر»(٢). ثم خرجت القدرية بالبصرة على يد معبد الجهني (٨٠هـ)، وقد ذكر أهل المقالات أن أصلها من النصارى ثم راجت عند بعض المسلمين وقام في مقابلها بدعة الجهمية على يد الجهم بن صفوان ومن اتبعه حتى استقر رأيان متقابلان في الضلالة القدرية والجبرية، وقد لخص شيخ الإسلام ابن تيمية أقوال الخائضين في القدر بقوله: «انقسموا إلى ثلاث فرق: مجوسية ومشركية وإبليسية.

الفرقة الأولى: المجوسية الذين كذبوا بقدر الله، وإن آمنوا بأمره ونهيه فغلاتهم أنكروا العلم والكتاب، ومقتصدهم أنكروا عموم مشيئة الله وخلقه وقدرته وهؤلاء هم المعتزلة ومن وافقهم.

والفرقة الثانية: المشركية الذين أقروا بالقضاء والقدر، وأنكروا الأمر والنهي وهذا قد كثر فيمن يدعي الحقيقة من الصوفية.

والفرقة الثالثة: الإبليسية وهم الذين أقروا الأمرين جميعاً ولكن جعلوا هذا تناقضاً من الرب سبحانه، وطعنوا في حكمته وعدله كما يذكر

---

(١) هو رئيس النصارى ببلاد الشام آنذاك. المحيط (١١٢٥).

(٢) رواه أبو دواد في القدر، والدارمي في الرد على الجهمية رقم ٢٥٧، وعبدالله ابن الإمام في السنة (٩٢٩)، واللالكائي (١١٩٧) وابن القيم في شفاء العليل (١/٧٥ - ٧٦).

ذلك عن إبليس⁽¹⁾ حقدهم كما نقله أهل المقالات ونقل عن أهل الكتاب»⁽²⁾.

ثم ذكر مذهب أهل السُّنة فقال: «وأما أهل الهدى والفلاح فيؤمنون بهذا وهذا، فيؤمنون بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو على كل شيء قدير أحاط بكل شيء علماً وكل شيء أحصاه في كتاب مبين، ويتضمن هذا الأصل من **إثبات علم الله وقدرته ومشيئته** ووحدانيته وربوبيته، **وأنه خالق كل شيء وربه ومليكه ما هو من أصول الدين والإيمان،** ومع هذا لا ينكرون ما خلقه الله من **الأسباب** التي يخلق بها المسببات كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ [الأعراف: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]. . . فأخبر أنه يفعل الأسباب⁽³⁾.

ثم ذكر ضلال من أنكر الأسباب وشرك من جعلها مبدعة وخالقه من دون الله تعالى، وعلى **هذا مذهب السلف أن كل شيء بقضاء الله وقدره وأن الله تعالى خالق أفعال العباد** كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ۝٤٩﴾ [القمر: ٤٩]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢]. والله تعالى يريد الكفر من الكافر ويشاؤه كوناً ولا يرضاه ولا يحبه ولا يأمر به، وأما من خالف في ذلك من الطوائف فمنشأ ضلالهم التسوية بين المشيئة والإرادة، وبين المحبة والرضا وقد دل على الفرق بينهما الكتاب والسُّنة والفطرة كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾

---

(1) ينظر الملل والنحل للشهرستاني (٩/١ ـ ١٣)، والفتاوى لابن تيمية (١١٤/٨ ـ ١١٥) حيث ذكر أن مناظرة حصلت بين الملائكة وإبليس بعد الأمر بالسجود والامتناع منه. وذكر ابن تيمية أنه ليس لها إسناد صحيح.

(2) التدمرية ص ٢٧٠ ـ ٢٨٠.

(3) التدمرية، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.

[التكوير: ٢٩]، وقال في المحبة: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]. وفي الحديث: «**إن الله كره لكم ثلاثاً قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال**»(١).

وفي المسند: «**أن الله يحب أن يؤخذ برخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته**»(٢).

والإنسان محاسب على كسبه وقدرته وفعله واختياره وليس على شيء لا يقدر عليه. ولم يكتسبه كما قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

«وإذا وازنت بين هذا المذهب وبين ما عداه من المذاهب وجدته الوسط، والصراط المستقيم ووجدت سائر المذاهب خطوطاً عن يمينه وعن شماله فقريب منه وبعيد وبين ذلك»(٣).

والله الهادي إلى سواء السبيل يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بحكمته لا معقب له سبحانه وتعالى.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٧)، (٢٤٠٨)، (٥٩٧٥)، ومسلم (١٥٩٣)، أحمد (٤/٢٤١)، والدارمي.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢/١٠٨)، وابن حبان (٢٧٤٢)، (٣٥٦٨).

(٣) شفاء العليل لابن القيم (١/٢٠١).

الخاتمة

وبعد هذه النظرة السريعة في رحاب وسطية القرآن الكريم في أصول الإيمان اتضح أن منهج القرآن الكريم منهج وسط بين المناهج والأفكار، وأنه عقيدة الفطرة التي فُطر الناس عليها، وأن عقائده من اليسر والسهولة بحيث لا تصعب على أحد، وأنها قليلة التكليف، وأنها أصول ثابتة سالمة من التغيير والعبث، وهي كذلك إن شاء الله تعالى حتى يرث الله الأرض ومن عليها لأنها تعبر عن الدين الخاتم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله. . .

د. محمد بن عبدالله البريدي